القصص

من الأدب التركى

فتاة الصحراء

رآها لأول مرة فى صحراء فلسطين فأحبها وتزوجها ، ونقلها من تلك الصحراء المقفرة الهادئة ، من وطنها العزيز إلى وطنه استانبول ، إلى ضوضاء المدن وجلبتها .

عاش الزوج سنين طويلة فى البلاد النائية ، فى الأماكن البعيدة عن وطنه ، ثم عاد ومعه كنز حبه ، تلك الفتاة التى تشبه زهرة ذابلة ، والتى نشأت وترعرعت فى الصحراء بجانب نخلة عارية وفوق رمال حارة ، عاد بها إلى استانبول تلك البلدة العظيمة التى تجمع أصنافاً من الناس وأنواعاً من البشر ، وتعج بمن فيها من السكان . أراد أن يجد لها فى استانبول العظيمة مكاناً تعيش فيه هانئة لا تذبل فتنصل [1] ولا تجف فتسقط .

كان متوسط الحال ، فهو لا يستطيع أن يقدم اليها فى بلد كاستانبول حياة صحراوية ، فلا بد له أن يجد لها فى أقاصى البلدة مكاناً هادئاً منزوياً .

لم يتركا مكاناً فى استانبول ولا محلة إلا بحثاً فيها عن دار فلم يجدا ما يوافقهما ، وبالأحرى لم تجد الزوجة ما يلائمها وما يلائم روحها الصحراوية ، وكانت تظن أنها إذا بحثت كثيراً فى أنحاء تلك البلدة العظيمة وجدت منزلاً فيه روح الصحراء

كلما زارا داراً كان ينظر الزوج بطرف عينه إلى زوجته ليرى

(١) نصل الثوب تغير لونه .

ولتفسير أسباب النافورات يجب أن نذكر حقيقة جغرافية وطبيعية وهى أن الماء يغلى عند درجة ٢١٢ فرنهيت أو ١٠٠ مئوى تحت ضغط يعادل الضغط الجوى ، لذلك اذا زاد الضغط وجب أن ترتفع درجة الغليان ، وعلى هذا فان الماء الذى يوجد فى أسفل قصبة النافورة قد تزيد درجة حرارته على درجة الغليان ولكنه لا يغلى عندها لوجوده تحت ضغط عمود الماء الذى يعلوه ، إلا أن ارتفاع درجة الحرارة يسبب تمدد الماء ويرفعه الى مستوى أعلى من المستوى الذى كان عليه فى قصبة النافورة ، وهذا يسبب تمدد الماء السطحى فيفيض على جوانب الحوض ، ولما كان الضغط قد قل بذلك على الماء الموجود فى أسفل القصبة فانه يتمكن من الغليان ويتحول جزء كبير منه الى بخار يدفع طبقات الماء التى تعلوه ، ويسمع لمحاولته الخروج الى السطح العلوى أصوات شديدة كأصوات الفرقعة ، وعلى قدر قوة البخار يكون ارتفاع الماء المندفع .

وتوجد النافورات فى مناطق ثلاث من العالم هى : —

١ — ايسلندا : ويوجد بها ما ينيف على ١٠٠ نافورة تزدحم بها منطقة بركانية صغيرة المساحة لا تزيد على ميلين مربعين .

٢ — منطقة يلوستون بارك Yellowstone Parck : فى الولايات المتحدة وتقع فى الغرب منها وفيها بضع مئات من العيون ، منها ما يزيد حجما وقوة على النافورات العظمى بايسلنده وأشهرها نافورة Old Faithful دقيقة فى مواعيد تفجرها حتى لتكاد تضبط عليها ساعتك ، إذ أنها تقذف كل مدة تتراوح بين ٦٠ و ٨٠ دقيقة نحو عنان السماء عموداً من الدخان الأبيض الى ارتفاع ١٥٠ قدماً مكوناً منظراً من أجمل المناظر الطبيعية .

٣ — فى نيوزلند : توجد الجزيرة الشمالية التى تشتهر نافوراتها بعظم مقدار السليكات التى تخرج ذائبة فى مائها والتى ترسب حولها وتكون مدرجات كانت الى ما قبل سنة ١٨٨٦ مجموعة من أجمل المناظر الطبيعية فى العالم حتى حدث أن ثار بركان فى نفس السنة هدم الجانب الأكبر منها .

٤ — البراكين : وهى المظهر الرابع لمظاهر الحرارة الباطنة للأرض ومن أهمها إن لم يكن أهمها ، ولذا سنترك الكلام عليها الى مقال آخر يتسع للكلام عنها بالتفصيل اللائق بخطر موضوعها ؟

نعيم على راغب
دبلوم المعلمين العليا قسم الجغرافيا

فى عينيها الصافيتين ماينطبع فيهما من انقباض أو انشراح ، إلا انها كانت بعيدة الغور لا يظهر فى عينيها ما يجول فى قلبها . وكان زوجها أيضاً يود من صميم فؤاده أن يجد مكاناً ترى فيه فتاة الصحراء ولو شيئاً صغيراً يذكرها بالصحراء وطنها العزيز .

وفى يوم من الأيام نهضا صباحاً ليذهبا إلى دار قيل لهما إنها موافقة لرغائبهما وهى فى محلة (السلطان أيوب) فذهبا اليها وتسلقا الهضبة التى قامت عليها تلك المحلة حتى بلغا الدار المقصودة ، كانت الزوجة كعادتها لاتبدى اعتراضاً أبداً ، بل كانت تمشى بجانبه كآلة صماء ، وقد تعبت من البحث عن الدار التى تريدها فى تلك البلدة التى لم تر أولها ولم تعرف آخرها .

كانت الدار صغيرة مشرفة على البحر فيها غرفتان وبهو وحديقة صغيرة ، وكانت فتاة الصحراء تنظر إلى كل ذلك بفتور وملل فاذا بشىء يعلق به نظرها ، لقد لمعت أمام عينيها شمس الصحراء : هناك فى الحديقة الصغيرة شجرة نخل ، نعم انها صغيرة هزيلة ، ولكنها كانت كافية لأن تمثل لها وطنها العزيز .

لقد أثر منظر تلك الشجرة فى فتاة الصحراء تأثيراً عظيماً ، وأعطى روحها حرارة شمس لطيفة أجرت الدم الذى جمد فى عروقها منذ فارقت صحراءها ، وفتحت تلك الشجرة الطريق بين عينيها وبين الصحراء النائية عنها : فرأت أباها وأمها واخوتها ، وعلى قيد غلوة منهم رأت جملها الذى يغمض عينيه السوداوين الكبيرتين أمام الشمس وهو يمد عنقه إلى الأمام .

لقد جاءتها هذه الشجرة بالصحراء ، الصحراء العزيزة عليها ، وبكل شىء قد تركته هناك ، وألقته فى أحضانها فكأنها بجانبه تلامسه ويلامسها .

نظرت الى زوجها بعينين يلمع فيهما بريق السعادة لأول مرة بعد عدة شهور ، كانت تلك النظرة تفيد معنى : اننى وجدت مبتغاى ، وانى هنا ، هنا فقط أستطيع أن أعيش بجانب هذه النخلة الصغيرة .

لقد خلت تلك الدار المشرفة على مياه الخليج من قلب المرأة محلاً رفيعاً ، فأحبتها بعد زوجها ، بقدر حياتها ، بقدر وطنها .

نزلا فى الدار وعاشا فيها سنة طويلة .

كانت تعيش هنا بعيدة عن الناس لا تخرج لزيارة أحد كائناً من كان ، بعيدة عن الحياة الغريبة ، عن الوجوه الغريبة ، فى تلك البلدة الغريبة .

لقد زارتها جاراتها يوماً ، فلما رأينها لا تبتدئ معهن خطاباً ولا ترد عليهن جواباً إلا بنظراتها الفاترة الحزينة التى تطلب بها الرحمة والشفقة ، ذهبن فى الحديث عنها مذاهب شتى كل واحدة ترى فيها رأيا ، فلما علمن أن بينها وبينهن حاجزاً من الاختلاف فى اللغة يمنعها من الاتصال بهن تألمن لها أشد الألم ، ثم أخذت تلك الرحمة تستحيل الى سخرية واستهزاء .

إن أهل المدن فطروا على أن يعدوا أهل الصحراء دونهم فى كل شىء ، وهكذا كان شأن نساء تلك المحلة ، كن يستهزئن بالمرأة المسكينة ، وكن يضحكن منها ويقهقهن ، لأنها لا تفهم ما يقلنه من الكلمات فيها ، وكن يجدن فى ذلك لذة عظيمة كما يجد الأولاد القساة لذة فى تعذيب الحيوان الذى لا حول له ولا قوة ، فشعرت فتاة الصحراء بذكائها الفطرى أنهن كن يضحكن منها ، فنفرت منهن ولم تعد تقابلهن .

لقد نسى نساء الحى وجود فتاة الصحراء بينهن ، عدا عجوز دردبيس كانت تتردد على نساء الحى فتقص عليهن أحاديثها وجدالها مع كنتها ، وتقلق راحتهن بتلك الأحاديث التى لا تعرف الانتهاء ، حتى مللنها وسئمن ثرثرتها ، فكانت تتردد على فتاة الصحراء فتجلس أمامها وتبدأ حديثها باسم الله وتبقى مدة طويلة تتكلم وتتكلم ، ثم تختم القصة بدموع ترسلها من عينيها وتغادر البيت وهى تقول للمرأة التى لم تفهم منها غير دموعها : « الى الملتقى يا بنيتى لقد أزعجتك بثرثرتى ، شرفينا »

كانت العجوز لا تنى عن زيارة فتاة الصحراء ، وأخيراً شعرت أنها وحدها التى كانت تتكلم طيلة هذه الأيام ، فقالت لفتاة الصحراء : مالك لا تتكلمين يا ابنتاه ؟ أبكماء أنت أم ماذا ؟ فلما رأت أن فتاة الصحراء لم تجبها إلا بابتسامة مبهمة ولم تقل إلا برأسها نهضت وغادرت المكان على ألا تعود اليه مرة أخرى

لم يبق من يطرق باب الدار الصغيرة ، ولم يبق من يوقظ شمس الصحراء النائمة هنا من أحلامها ، إلا انها أحياناً كانت تنزل عند إرادة زوجها ورغبته وتذهب معه الى النزهة ، ولكنها كانت تعود الى بيتها وهى مريضة قلباً لا جسما ، لقد كانت تشبه

طائراً صغيراً فارق عشه ليطير ، فوهى جناحاه ووقع على الأرض .

إنها لا تكون سعيدة إلا إذا كانت فى منزلها منفردة بنفسها أمام شجرة النخل مستغرقة فى رؤياها ، وفى ذلك الحين فقط تظهر الشمس لعينيها ؛ إنها حين تجلس تلك الجلسة ، فى تلك الساحة التى يبدو لها منها وجه السماء ، والتى تشبه فى نظرها قصراً من القصور تنسى ذلك الدور الأخير من أدوار حياتها ، وتعود بخيالها فى غفلة لذيذة الى تلك البحار الرمليـة التى تجرى فيها بقوة هائلة سيول أشعة شمس بلادها فتغمرها غمراً ، وتملأ أرجاءها ونواحيها .

إنها فى ذلك الحين حين تجلس الى تلك النخلة التى تشبهها فى محبـة الوطن ، وتشاركها الأسف والحزن ، وترتسم على شفتيها ابتسامة حزن يائسة ، لوقوعها بعيدة عن وطنها وعن شمس وطنها وعن سماء وطنها ، تجمع تلك الهضاب والتلال التى أمامها بعضها الى بعض ، حتى يغيب عن نظرها ذلك البحر الذى أمامها ، وترى أشعة الشمس تغمر تلك الصحراء ، وتبصر ألوف النخيل المنتشرة فيها يسلم بعضها على بعض من بعيد بأغصانها الخضراء العالية الرءوس

فاذا رسمت فى خيالها هذه الصورة الجميلة ، وأتقنت صنعها كل الاتقان ، وأعطتها من حسن تمثيلها حياة حقيقيـة ، خُيل اليها أن أباها وأمها وإخوتها وجملها ذا العينين الواسعتين السـوداوين أمامها وتحت نظرها ، فخفق قلبها لهم ، وحاولت أن تهجم عليهم مسلمة معانقة .

وربما ذهبت بعض الأحيان فى النهار الى الحديقة ووضعت حصـيراً تحت النخلة التى لا ترد أغصانها عنها أشعة الشمس واضطجعت عليها ، ورفعت عينيها الى السماء ، وسافرت بفـكرها الى أقصى حدود الخيال .

كانت ترى قطع السحب تمشى فى السماء على غير انتظام ، فهى إذن إما ذاهبة نحو قومها ، أو آتيـة من عندهم ؛ فالسحب إذن قد رأت قومها أو ستراهم ، فـكانت تبتسم لهؤلاء السائحات وتسألهن : ألم يجئنها بسلام من قومها وصحرائها ؟ أو تسألهن أن يتركن لها فى أجنحتهن مكاناً صغيراً يسع خبراً عنها لقومها وأهلها

* * *

فى أعقاب خريف السنة التى قضتها فى تلك الدار رأت الطيور تطير أسراباً أسراباً فى السماء ، فاهتمت لذلك وسألت زوجها عنها فقال لها : « إنها ذاهبة الى بعيد ! الى البلاد الحارة » . فقالت فى نفسها إنها ستمر إذن بوطنها العزيز . فكانت تضطجع تحت نخلتها وتغنى بصوت حزين أناشـيد قومها وألحانهم الشجية ، مضمنة ذلك شوقها الشديد ، متوهمة أن تلك الطيور ستقفل راجعة اليها تحمل اليها أجوبة تلك الألحان والأشواق .

جاء الشتاء بخيله ورجله ، وأصبحت فتاة الصحراء لا تقدر على الجلوس تحت نخلتها ، والتمتع بظلها ، وشم رائحتها ، فأخذها من اليأس ما زاد فى آلام نفسها ، وأصبحت تقعد بجانب نافذتها ساعات فراغها من عمل المنزل غارقة فى بحر من الآلام والأفكار ، فما يدرى ما الذى كان يشغل خيالها ويقلق بالها فى ذلك الحين ، أمنظر النخلة التى كانت تخشى عليها من البرد القارس ، والهواء العاصف ؟ أم انتظار الطيور تقبل عليها من ناحية من نواحى السماء المستورة بالغيوم ، تنقل اليها أخبار أهلها ووطنها . ؟

كانت فتاة الصحراء كلما مضى يوم من الشتاء هزلت وضعفت ، وأخذ نور عينيها يخبو تدريجاً . فلم يخف ذلك على زوجها ، فقال لها : « ما بك ؟ أراك تخفين عنى شيئاً يمضك ويؤلم ، لقد سئمت الوحدة وتشوقت لرؤية أهلك وصحرائك » كانت تنكر ذلك ، ولـكنها كانت فى شوق زائد الى رؤيتهم ، إنهـا اشتاقت الى الصحراء ، الى شمسها ، الى جوها الصافى ، الى نخيلها ، الى والديها واخوتها ، الى جملها ، أجل ! اشـتاقت الى كل هؤلاء ، ولـكنها كانت كالأطفال تنكر شوقها وتصر على الانكار ، ومع هذا كانت تدير وجهها تحت تمثال صحرائها ، ألا وهو نخلتها وتنظر اليها بحزن عميق .

أقبل الربيع :

علمت ذلك من زوجها فابتهجت وفرحت : جاء الربيع ، كانت تظن أنه اذا جاء الربيع أتاها بتذكار جميل من أهلها ومن قومها ، ولـكن هيهات ، جاءها الربيع بالمصيبة الـكبرى : ستباع الدار ، وهما مضطران الى النزوح عنها الى غيرها

الدار يبيعها صاحبها : ستفارق إذن فتاة الصحراء حلمها الجميل ، ستفارق النخلة ، خطر لها خاطر فجأئى وهو أن تأخذ معها شجرتها الى الدار التى ستسكنها ، ذكرت لزوجها رأيها فوافقها على ذلك ، وقررا أن يأخذا معهما النخلة سلوتها الوحيدة

رحلا الى دار صغيرة مظلمة فى حى فقير مظلم فصنعا للشجيرة محلا أمام النافذة ووضعاها فيه وربطاها الى حديد النافذة

لقد قنعت فتاة الصحراء بهذه الدار الصغيرة المظلمة ، ما كانت ترى فى هذه الدار السماء الصافية ، ولا الشمس المشرقة ، ولا القمر الزاهى ، ولا النجوم الزاهرة ، ولا الدور الشاهقة ، لكنها كانت ترى نخلتها المحبوبة فيسكن قلبها لرؤيتها ، فحياتها منوطة بها . تجلس دائماً بقرب النافذة واضعة رأسها على يدها ، وتنظر إلى رفيقة وطنها بقلب أضناه الشوق وبرحت به الذكرى . ولكن النخلة كانت تذوى كطفل أخذ غصباً من حضن أمه ، وفتاة الصحراء تذبل بذبولها كشجيرة انتزعت من مغرسها ، فاستحكم الذبول فى الاثنتين ، فكان يظن الناظر إليهما أن سراج حياتيهما ينطفىء تدريجاً .

نهضت يوماً من فراشها وذهبت كعادتها إلى نخلتها ، ولكنها تراجعت إلى الوراء دَهِشة ، ماذا ترى ؟ رأت نخلتها العزيزة رفيقتها ومؤنستها قد انكسرت من وسطها حيث الرباط ، وسقط رأسها إلى الارض ، فهدت تلك المصيبة من قوة الفتاة ، فجلست بجانبها وذرفت دموعاً غزيرة خرجت من أعماق قلبها المحطم لفراق الوطن والأهل .

عاد زوجها مساء فالفاها على تلك الحالة باكية حزينة . فسألها قائلاً : « مابك ؟ أعلميني أسباب حزنك وكدرك ، ما الذى يبكيك ؟ » فاعترفت لأول مرة قائلة : « لنذهب ! لنذهب إلى هناك ! » وأشارت بيدها إلى بعيد ، إلى ديار أهلها وقومها .

* * *

عادت الطيور ولم تأتها بخبر من أهلها ، ولكن ما الذى يهمها من ذلك الآن ، إنها ذاهبة بنفسها الى الصحراء ، الى الوطن الذى طالما فكرت فيه وأضناها بعدها عنه ، وذرفت لذلك دموعاً غزيرة . .

لقد ذهبا الى الصحراء ومضى على ذهابهما زمن طويل . .

فليت شعرى ، أفتاة الصحراء لاتزال تجلس تحت ظل أشجار النخيل ، تغنى أناشيدها القومية فرحة مسرورة بالوطن العزيز الذى كانت ترى بجانبه جمال الآستانة قبحاً ، وماءها ملحاً ، وهواءها رديئاً ، وجوها وبيئاً ، وشمسها قاتمة ، ونجومها مغمضة نائمة ، أم هى نائمة نوماً أبدياً تحت أطباق الثرى ، وحيدة منفردة وظلال أشجار النخيل تبكى عليها ؟ . .

« حلب »

فتاة الفرات

من المسرح الغنائى

١ ـ سافو

لأوجيه اميل

ترجمة الأستاذ محمود خيرت

مقدمة

ليس الفونس دوديه بمجهول من المشتغلين بالأدب الفرنسى وهو ذلك الكاتب الوجدانى الرشيق الأسلوب ، السليم الذوق ، البارع فى وصف الحقيقة ، فهو المنبع الصافى ، والسهل الممتنع ، يأخذك جلال ما يكتب ، ويسحرك بيان مايصوّر ، فلا يلبث أن يشد أعصابك شداً ، ويجرى دموعك سيولاً ، ويلهب مشاعرك إلهاباً وأنت ذاهل تشارك بالرغم منك أشخاص قصصه ما يوزعه عليهم من مختلف العواطف المضطربة المتباينة .

وسافو إحدى آياته الكبرى التى جمع فيها بين الشهوة الثائرة ، وعاطفة الأمومة الطاهرة ، ظهرت فى سنة ١٨٨٤ وهو فى الرابعة والأربعين من عمره (لأنه ولد سنة ١٨٤٠) وقد امتلأ تجربة وخبرة ، وشبع شهرة وصيتاً ، فكانت من القصص الخالدة ، حتى ان قطعة سافو التمثيلية الغنائية (أوبرا) التى أخذت عنها دائما متجددة الشباب تمثل فى فرنسا إلى الآن ، وفى مصر بدار الأوبرا الملكية كل موسم تقريباً . وهذه القطعة هى التى عنينا بنقلها « للرسالة » إلى لغتنا العربية الكريمة (١)

واسم سافو على مايظهر غير فرنسى ، لأنه اسم امرأة أغريقية اشتهرت مابين القرن السادس والسابع قبل الميلاد بشعرها ، كما اشتهرت بخلاعتها واستهتارها ، حتى أنها لما ملك اليأس عليها كل سبيل القت بنفسها من أعلى صخرة (لوكاد) فى اليم .

ولقد وضع پراديه المثال الفرنسى الشهير فى سنتى ١٨٤٨ و ١٨٥٢ تمثالين أولهما من البرونز والثانى من المرمر كانا محل اعجاب الناس ، حتى أن كثيراً منهم حصلوا على نسخ منهما ، وقد سماها باسمها . ولا يمكن أن يكون أراد بهما تخليد تلك القصة الشهيرة التى لم تظهر كما قدمنا إلا فى سنة ١٨٨٤ لأن أول هذين

(١) مؤلف هذه القطعة هو أوجيه ايميل وقد طبعت بمطبعة كالمان ليفى باريس وهذا على ما أذكر لأننى فقدتها بعد الفراغ من تعريبها